الفصل الثامن

مؤامرة و لكن...

ساعات اليوم الدراسي تمضي ببطء على قلبها...

العزلة والصمت سلاحاها في حربها لمواجهة نظرات الطلاب وأحاديثهم عنها كل يوم، إلا من تلك الرفيقة لدربها، الرقيقة بقلبها، البلسمٌ النقي، فيض الأنس والحب التي وهبها الله لها لتمضي في طريقها الذي اختارته، تتناقشان معاً، تتبادلان الكلمات والضحكات بمرح وكأنهما صديقتان منذ أمد، وفي كل لقاء تظل نيران القلق تلسع قلبها، لقد استطاعت بتقربها منها لفت أنظار كل زملائها وزميلاتها القدامى، لمحت استنكاراً في العيون، واحتجاجٌ صامت ضدها بتجنبهم إياها خاصة حين تكون برفقتها، حاولت منعها عن مرافقتها بل ترجيتها لتبتعد عنها، فرددت على مسامعها قائلة:

-مهما ظل الذهب وبريقه مُختفيان عن الجميع، لابد أن يظهر ذات يوم، دوام الحال من المحال يا ضياء، أنا واثقة أن الجميع سيحبك يوم ما مثل ما أحببتك، فقط قليل من الصبر يا عزيزتي.

رقص قلب ضياء في سعادة لكلمات صديقتها، لكنها في الوقت ذاته لم تكن تريد أن تلقي بها معها في متاهتها المعتمة، فقالت لها وهي تدافع حشرجة حزن كادت تتسبب في لعثمة لسانها:

-سأصبر لوحدي يا سحر، لا أريد أذيتك.

أدركت ما جال في خاطر صديقتها، فأمسكت بيديها وقالت في حزم:

-أنا بوابتك لهم، فلا تخافي، لن يحدث لي شيء.

هنا رسمت ابتسامة على وجهها لتوهمها باقتناعها والألم والقلق يعتصران قلبها، ماذا عساها تقول وهي ترى رفيقتها تكافح لأجلها؟

قبل بدء اليوم الدراسي الرابع، وأثناء توافد الطلاب، دخلت سحر القاعة واختارت مقعداً في المدرج الأول، ووضعت حقيبتها على المقعد الذي عن يسارها، لقد حجزته لأجل ضياء، تلفتت حولها وتطلعت في وجوه الطالبات الوافدات إلى القاعة باحثة عنها؛ لكنها لم تجدها، لم تأتِ بعد، ثم وقع بصرها على ثلاث فتيات يسرن معاً، كن أيضاً يرتدين العباءة والنقاب السوداء مثلها، فلم يظهر من أجسادهن إلا أيديهن وأعينهن، ابتسمت سحر في سرور حين حزرتهن، ولوحت بيدها وهي تقول:

-ندى، صفاء، سوسن، تعالين إلى هنا، أهلا بكنَّ يا صديقاتي العزيزات.

انتبه الفتيات لها فتوقفن بسرعة، وأرسلن النظرات ليتبادلن خطاباً ذهنياً لم يفطن له أحد، ثم فردت سوسن قامتها الطويلة، وهزت رأسها حين تبدلت ملامحها الودودة الهادئة إلى الحزم، وبرق في عينيها السوداوين وهج أملٍ بتحقيق ما جال في ذهنهن جميعاً، بينما حركت ندى – ذات القامة القصيرة- نظارتها الطبية بانزعاج لتعدلها أمام عينيه الصغيرتين السوداوين وقد اختفت ملامحها السمراء المرحة متحولة إلى وجوم عميق، وأما صفاء شبيهة سحر شكلاً، والأقصر منها قامة، والأكبر منها بنحو العامين، لم يختلف حالها عن حال زميلتيها، حوار النظرات جعل نظراتها وملامحها الخجولة تتبدل لارتباك وقلق كبيرين.

استغربت سحر ملامحهن وهن يتحركن نحوها ويقتربن منها، ثم أسرعت ندى تلتقط حقيبتها في سرعة لتجلس بالمقعد، فقالت لها:

-تهملي يا ندى، هذا مقعد ضياء.

أجابتها ندى في ضيق وهي تعقد حاجبيها:

-ضياء! لِم دعوتنا إليكِ إذن يا سحر؟ لا هم لك إلا مصاحبة تلك الفتاة الغريبة والدراسة معها؟ يبدو أنك تريدين نسياننا وترك صداقتنا.

-مُحال أن أفعل ذلك وأنتن صديقاتي طفولتي، ونقضي معظم أوقاتنا داخل الجامعة وخارجها معا.

ردت سوسن وهي تجلس عن يمناها وتقول في حدة:

-نعلم أننا نفعل ذلك؛ لكن هذا الأمر بدأ يقل منذ مرافقتك لضياء، فماذا تسمين ذلك؟ ماذا تسمينه رغم ابتعاد الجميع عنها بسبب منظرها؟ ألا يعني هذا أنك تريدينا أن نتجنبك بتصرفك ذاك أيضاً كما يتجنبكما الجميع؟

-المظهر لم يكن عنوانا للجوهر يا سوسن، وقد دعوتكن لأجل أن نتحدث بشأنها.

ردت عليها صفاء في قلق بصوت هادئ:

-أنت مخطئة يا سحر، (الكتاب واضح من عنوانه)، لولا قبح وجه ضياء لما نفر منها أحد، فهل الجميع مخطئ؟

ابتسمت وهي تقول لها:

-ولا تنسي أيضاً (لا تحكمي على الكتاب من غلافه)، إياك أن يخدعك قبح وجهها يا صفاء، إنها فتاة طيبة وخلوقة.

-إنها غريبة عن المدينة وأنتِ تعاملينها كما لو كنتِ تعرفينها منذ زمن، لِمَ تسعين لطلب صداقتها وكسب ودها؟ ألا تخشين منها؟

-لا، ولأنها زميلة لنا بالدفعة ومغتربة عن عالمٍ ألفته، وأود أن تشعر بالراحة معنا.

ربتت سوسن على كتفها، وهي تقول في حزم:

-نحن ندرك بأنك تشفقين عليها بسبب غربتها ونفور الجميع منها، لكنهم سيبتعدون عنك أيضاً وربما كرهوك بسببها.

عقدت حاجبيها، وقالت في حزم:

-إلى متى سنظل ننظر للأمور من زاوية واحدة ويملؤنا الشك حين نجد الأغلبية يتجنبونه ولا يفعلونه؟ ألا يجب علينا أن نتريث قبل أن نحكم على أحد؟ ألا يجب علينا أن نتيقن من صدق ما نظنه؟

-معك حق؛ لكن ليس مع الغرباء.

-ضياء كانت خائفة علي مما قلته لي الآن، طلبت إليَّ أن أبتعد عنها، وأنا من رفض ذلك.

دُهش الفتيات لقولها وبدت نظرات اللوم لأنفسهن تلتمع في عيونهن، بينما تابعت سحر في ألم:

-هل تعرفن سبب تشوه وجهها؟ إنها الحرب، الحرب التي دمرت كل شيء جميل وغالٍ في حياتها؛ بل في حياتنا كلنا، أشعر حيناً بأننا نعيش رغماً عنا، فهل نحاربها فقط لأنها ضحية حرب؟ هل نحارب بعضنا رغم وضعنا هذا؟ نحن في حاجة لأن نتماسك، أن نتآزر، فُرقتنا واهتمامنا بذواتنا سبب فيما يجري لنا ولأرضنا.

عمهنَّ الوجوم والصمت وتطلعنَّ لبعضهن البعض، حتى قطعته ندى وهي تقول:

-أتفق معك في كل كلمة قلتيها، ولكن الحذر واجب.

ابتسمت لها وردت:

-إذن لتختبرن ضياء بأنفسكن.

تطلعت إليها في ارتباك، بينما قالت سوسن في حيرة:

-كيف؟

-سنجلس كلنا معاً، ولن نفترق أبداً لمدة أسبوع كامل حتى تتعرفن عليها عن قرب وتحكمن على سلوكها، وتقررن خطأ تصرفي من صوابه.

هزت صفاء رأسها وقالت:

-موافقة، لنخض الاختبار يا سحر، إن كانت ضياء مثل ما قلتي فسنكون صديقات لها مثلك، أما إن تبين لنا عكس ذلك فيجب أن تبتعدي عنها.

-موافقة.

قالت سوسن:

-حسناً، اجمعينا بها في أي وقت تريدين.

-بل اجلسن معنا الآن، لا تزال المقاعد حولي شاغرة.

في تلك اللحظة، أقبلت ضياء على القاعة، رأتها برفقة صديقاتها، وأحجمت عن الاقتراب منهن، واتجهت لمدرج بعيد عنهن، فنادتها:

-تعالي يا ضياء واجلسي معنا.

لم تكن تريد أن ترفض طلبها وترد كلمتها، وفي الوقت نفسه لم تكن تريد أن تختلط بزميلاتها خوفاً من حدوث جدال لا تبتغيه وتسبب لمؤنستها الوحيدة مشادات هي في غنى عنها، اقتربت وقلبها يخفق في قلق حتى جلست إلى يسارها في المقعد الذي اختارته لها، وعن يمينها رفيقاتها الثلاث، قالت سحر:

-لدينا اجتماع في فترة الاستراحة يا ضياء ويجب أن تحضريه.

قلقت أكثر في خلدها؛ لكنها لم تظهره، وقالت محاولة صرفها عن الأمر:

-لا، لا أستطيع، سأذهب لأناقش الد...

قاطعتها سوسن وهي تقول في ابتسامة:

-هي مناقشة حول أحد محاضرات الدكتور سامي السابقة، وأظنها ستفيدك.

هنا لم تستطع ضياء أن تتمنع أكثر، فهزت رأسها وهي تقول:

-حسناً، يسعدني مشاركتكن.

-اسمي سوسن، تشرفت بمعرفتك.

-وأنا أيضاً.

تصافحتا، ثم سلمت عليها ندى وصفاء وظللن يتحدثن خمستهن بكل ود، بدين أمامها وكأنهن يعاملنها على سجيتهن، لم يبدُ عليهن نفور منها من أول لقاء، فحاولت جاهدة أن تبعد كل قلق وارتباك عن نفسها وتعاملهن على سجيتها أيضاً، بقين معاً طوال اليوم الدراسي ولم يفترقن أبداً.

زاد هذا من دهشة الطلاب جميعهم، أن تصبح في ذلك اليوم رفيقة لأربع طالبات بدل واحدة!

لم تكن الدهشة ببعيدة عن طارق الذي طافت التخيلات بفكره في أن تظل تلك الفتاة الغريبة القبيحة منزوية لوحدها بذكائها وشجاعتها التي يراها مصطنعة مع أحاديث زملائه من الطلاب والطالبات كل يوم، استغرب أيضا لما حدث، فقال في سخرية محللاً ما رآه:

-يبدو بأن الفضول دفعهن لمرافقتها وليعرفن أسرارها، هه، هكذا النساء دائماً، لنرى نتيجة هذا قريباً.

قال ناصر نافياً:

-لا أظن ذلك، صفاء وندى وسوسن هن صديقات سحر، ولا شك في أنهن لا يردنها أن ترافق ضياء.

-إذا كان الأمر كذلك، فعليهن إبعاد صديقتهن قبل أن يستفحل ضرر تلك المزدوجة عليها.

قال محمود في ضيق:

-أوافق طارق يا ناصر، أتمنى أن يدركن هذا سريعاً.

قال طارق في ثقة:

-الأمر لن يدوم طويلاً، ثقوا بهذا.

مضت عدة أيام وسحر ورفيقاتها لا يفارقن ضياء أبداً، زادت دهشته وحيرته وهو يراهن يجلسن سوياً في القاعة، وفي المكتبة، وحتى حين يذهب لبوفيه الكلية، الابتسامات والضحكات والحديث الهادئ المتزن الذي لم تعكره كلمة بذيئة أو تصرف يدل على النفور والاحتقار، تساءل:

هل يمكن أن يصل الفضول بالمرء للتعامل بهذه الطريقة، وبكل هذا الصبر على مرء ينفر منه الجميع؟

ثم تمتم في نفسه ساخراً:

-كل شيء ممكن في قاموس الفضول لدى النساء.

عاد ليطمئن نفسه بهذا، ولم يمضِ سوى أسبوع واحد على هذه الحال حتى فوجئ بخلاف توقعاته تماماً، وذهبت كل تحليلاته أدراج الرياح

ما ظنه فضول كان بداية لشيء أكبر، مع نهاية الدوام من ذلك اليوم رأى كل فتيات الدفعة يحطن بها ويحادثنها بود ومحبة ويصافحنها بحرارة، وهي تبادلهن الحديث في ابتسام بصوتها الهادئ وتصافحهن وكأنها كانت في شوقٍ لتلك اللحظة، تساءل في نفسه:

-ماذا حدث؟! ما أراه وأسمعه الآن مناقض تماماً عما حصل خلال الأسبوع الماضي، هذه المزدوجة... كيف؟... كيف استطاعت استقطاب الفتيات خلال هذا الوقت القصير؟ ما سر ذلك؟

ثم لاحظ سحر وهي تتحدث إلى الفتيات في ابتسامة أيضاً وكأنها تقدم ضياء إليهن، وإلى جانبها رفيقاتها الثلاث مبتسمات اللواتي شاركنها الحديث أيضاً

-أها، إذن سحر من وقفت في صفها ودعت رفيقاتها لتروضهن لأجلها، والآن تقنع الفتيات لأجلها؟ هذا غباء مهما كان منها فالأولى بهن تجنبها حتى لو تحدثت عنها بما هو حسن، منظر وجهها وحده كفيل فقط بإبعادهن وإخافتهن و إثارة اشمئزازهن.

هكذا فكر وقد أحس بأن هذا الأمر يميزه غيظاً، ويثير الضغينة والانزعاج في نفسه، فقال محمود في ضيق:

-يبدو أن سحر تطلب تعاطفهن معها، ولهذا استعانت برفيقاتها.

أضاف وليد بعد أن زفر في نفور:

-التعاطف يكون مع شخص لا يثير الاشمئزاز كهذه.

قرأ ناصر ملامح الضيق الزائد على وجه طارق وهو ينظر بصمت لضياء، فقال له:

-دعك منها يا طارق.

عجل بخطاه خارجاً من القاعة، ورفاقه يلحقون به وهو يقول في حدة:

-هل سنجبر على رؤية هذه المزدوجة كل يوم؟ لا، حتى وإن كانت نازحة، فلستُ من يبقي أي شيء مزعج أمامه لينصرف عنه.

ثم التمعت في وجهه ابتسامة وهو يقول في مكر:

- سأجعلها أكثر الفتيات شهرة في الكلية كلها، وليس على الدفعة فقط.

-ماذا ستفعل؟!

-ستعرف ذلك قريباً.

مضى الشباب الخمسة خارجين من المبنى وغادر طارق بسيارته، و لم تغب تلك المزدوجة عن عقله ، ثم خرجت ضياء ومعظم الفتيات لا يزلن حولها، وهي تقول لهن مبتسمة:

-سررت بالتعرف عليكن.

ردت فتاة:

-بل نحن يسعدنا ويشرفنا وجود فتاة متميزة مثلك بيننا.

عقبت صفاء:

-لقد كانت سحر محقة، لا أدري لماذا نحكم على الأشياء بسرعة دون تريث أو تثبت.

ردت سحر:

-إنه الخوف من المجهول، الخوف من التجربة، الخوف من أن نقع في الفشل قبل أن ندخل ميدان التحدي في كل شيء، لذا نحاول حماية أنفسنا.

قالت ندى:

-سامحينا يا ضياء على ما بدر منا.

قالت ضياء:

-لست ألومكن ولا ألوم أحد أبداً، فلا تعتذري.

وتبادلن الأحاديث قليلا ثم غادرن الفتيات المبنى معاً، وسرور ضياء لا يعادله سرور في هذا اليوم.

مهما توالت عواصف الزمن وتهاوت المصائب على النفوس، يظل جمالها الأبدي طاغياً يستشعره كل من حل بها وترعرع فيها، كيف لا وهي ملكة بحر العرب الأزلية، المتربعة على عروش القلوب قبل عروش الجبال، حرارة شمس الظهيرة لا يمكنها أن تؤثر في استمتاع الساكنين بآثار جمالها؛ بل تحول مياه البحر مسكاً تهبه لهم ولكل زائريها، تحاول بسخائها الملكي منح الفرح رغم أسرها وأثقال قيودها وإرهاب سجانيها؛ عيون لا تعرف الرحمة، نقاط تفتيش، تحقيقات لا تستثني أحداً، وأسلحة تفتش عن الموت، وتبحث عن ذريعة لتزهق الأرواح.

عبر حافلة صغيرة، قطعت ضياء طريقها من (فُلُك) متجهة إلى (المكلا)، وتتأمل كل ما حولها، يخالجها شعور بالألم ممتزج بثورة عظيمة حين تقع عيناها على الآسرين، تتدافع ذكريات مؤلمة إلى رأسها، فتود لو تتحول ثورة نفسها للهب يحرقهم جميعاً ومن هم على شاكلتهم بدل أن يظل في أعماقها، تشعر بالعجز وتهدأ نفسها في مضض وهي تجلس على

مقعدها قرب النافذة، تطالعهم مثل من حولها وحسب، وحين تجاوزتهم ووصلت إلى منطقة (الديس) رأت الناس لا تزال تسعى وتمضي في دروبها لتبحث عن أرزاقها، الحياة يجب أن تستمر مهما كانت آلام الواقع.

ثم اجتازت الحافلة منطقة (باجعمان) مرور بالشارع الرئيسي المؤدي لأحياء المكلا القديمة ليكون (خور المكلا) عن يمينها، وبعد تجاوزت قصر السلطان القعيطي بقليل توقفت عند (الكبس) قرب كورنيش (حي السلام) بعد ساعة ونصف من الرحلة، ودفعت ضياء أجرة السائق ثم نزلت لتقطع الشارع؛ لكن البحر من خلفها شدها بنسماته ونغمات العذبة، التفتت نحو أمواجه المتلاطمة على جدار الكورنيش والصخور المتفرقة لتتطاير قطراتها النافرة البيضاء في الهواء متمردة على قانون الأرض وتنطلق نحو السماء، ابتسمت وهي تحرك رأسها نحو الأعلى وتلألأت عيناها وهي تتابع طيرانها الآسر لتحلق بها في سماء (عدن) وترى أهلها عند شواطئها وهم يستمتعون بهذا الجمال البحري، نداءات الأطفال وثرثرة أهاليهم كانت كلمات متناسقة مع عزف الأمواج، ثم هوت القطرات نحو الأرض بعد أن حطت بها عند مرافئ الذكريات فلم تنقطع عنها في تلك اللحظة، تعود نسمات الأرض تحملها إلى كل ما هو جميل فتبتسم، أو تعبث بها نسمات الحنين فتحزن.

لطالما أحبت الوقوف هنا منذ أن استقر المقام بها في (المكلا)، لتستمد شيئا من فيض (عدن) القادم عبر البحر، أو كأنها تنتظر من البحر الذي يرى مدينتها من جهة أخرى أن يعيدها إليها، فتتمتم:

-متى سأعود إليكِ يا عدن؟

هنا أشفق الحنين على قلبها، وأوقف نسماته ليردها لواقعها.

أسرعت خطاها لتقطع الشارع الرئيسي وتمر أمام المحلات الواقعة أمامه ثم تمر في زقاق صغير بين عمارتين تاركة (مستشفى المكلا) عن يسارها، وتتجاوز المحلات بالشارع الرئيسي بالحي لتصل إلى وسطه الذي احتضنته منازل جمعت بين العراقة والتجديد، عمارات طينية ذات طراز عريق وارتفاع شاهق، ونوافذ خشبية صغيرة مقسومة من منتصفها عرضيا إلى قسمين، قسم علوي مفتوح تدلت من معظمها أقمشة بيضاء تمايلت مع الهواء مزينة بالتطريزات المختلفة وحسب ذوق صاحبة البيت، والبعض الآخر كانت مغلقة ببابها الصغير، أما القسم السفلي فكانت الثقوب المزخرفة المنحوتة تملؤه، و(أكواخ) بعض المواشي كانت لاتزال ملاصقة لجدران بعض البيوت، كل ذلك جعل من الحي وعمرانه معلم تاريخي لحضارة يُخاف عليها أن تندثر.

قطعت الشارع مارة بأزقة الحي، وابتسمت حين رأت مجموعة من الأطفال أمام بيوتهم يلعبون بفرح.

ثم توقفت عند أحد العمارات القديمة، لتطرق بابها الصغير، وتنتظر للحظات قبل أن تلمح امرأة تضع غطاء مزركش على رأسها تطل من نافذة بالدور الثاني لتستطلع من الطارق، فرأتها وابتسمت لها، ثم فُتح الباب بحبل ارتبط بمقبضه يُشد من الأعلى عبر ثقب صغير بالسقف، أخفضت رأسها ثم دلفت، ثم أغلقته خلفها وعبرت رواق ضيق يصل ارتفاعه

متران وعرضه إلى متر وسقفه مغطاً بأعواد خشب (المنتريز) الأسطوانية الشكل، كان مظلماً لم تهتدِ إلى نهايته إلا بمصباح عنده زاد نوره بانعكاسه على الجدران المطلية (بالنورة) ذات اللون الأبيض، ثم انعطفت يميناً حيث درجات السلم المرتفعة، ارتفاعه مثل الرواق وخالفه في عرضه فكان أصغر منه، تجاوزت الدرجات الأولى لتصل الدور الأول الذي كان يضيئه مصباح صغير يتيم وضع بسقفه فأضاء موضع الدرجات إضاءة شحيحة، كاشفاً عن بابين لغرفتين مغلقتين، أمام الغرفة البعيدة مساحة واسعة نوعاً ما وضع فيها عدد من الصناديق الفارغة المهملة فاهتمت بها أكوام الغبار واتخذت منه العناكب أساساً لبيوتها، وبجانب الدرج المؤدي نحو الأولى حمام مغلق، الدور بكل تفصيلاته بدا مهجوراً، تجاوزته، لتصل الدور الثاني والذي كان بنفس نمط سابقه، أمام الدرج مباشرة مساحة صغيرة ثم غرفة شبه واسعة، وبارتفاع ثلاثة أمتار، لم يكن على الأرضية إلا حصيرتان احتلتا مساحة واسعة منها وبضعة وسائد، و النوافذ الخشبية مطلية بطلاء بني زهد البائع في ثمنه، كانت تلك الحجرة قد خصصت للضيوف.

وعن يمينها قُسمت المساحة الواسعة إلى قسمين بقطعة قماش كبيرة مزينة مثبتة من طرفيها العلويين بحبل ومسمارين؛ قِسم قرب الدرج، وقسم بما تبقى من المساحة حرة حوى موقدا وضع على الأرض، ودولاب صغير حوى بعد مواد الطعام، وسلة صغيرة حملت بضعة أدوات للطبخ، تحولت المساحة بمحتوياتها إلى ما يشبه المطبخ، وأمامه قبعت الغرفة

الأخرى، خلعت ضياء حذاءها في المساحة الشاغرة في اللحظة التي أطلت أمها (مها) من الغرفة.

امرأة خمسينية رسمت بشفتيها ابتسامة سرور على وجهها الهادئ الوضاء، فتشكلت ثنيات بسببها تجمعت مع تجاعيد طفيفة عند زوايا عينيها، وكانت قد أزاحت الغطاء التي ارتدته عن رأسها ليظهر شعرها الأسود الطويل والذي تخللته شعيرات وقد جمعته في كعكة خلف رأسها، والثوب الطويل الفضفاض كان يظهر جسدها المعتدل وقامتها القصيرة قليلا. لاح في عينيها السوداوين بريق فرح حين رأت قسمات الفرح على وجه ابنتها التي أسرعت تسلم عليها في مرح:

-السلام عليكم يا أمي.

-وعليك السلام يا ضياء، أراك مبتهجة اليوم يا ابنتي، ترى ماذا حدث؟

قبلت رأس أمها وكف يمناها ثم قالت:

-حدثت أشياء جميلة، لذا أنا مسرورة، مسرورة جداً يا أمي.

-أسعدك الله دائما يا ابنتي، تعالي نجلس بالغرفة لنتحدث، فلقد أنهيت إعداد الغداء.

دلفتا إلى الغرفة التي كانت أصغر من الأولى مساحة، لم يكن بها سوى دولاب متوسط الحجم وعلّاقتي ملابس جدارية، وطاولة صغيرة اعتلتها بعض الكتب والأوراق، وحقيبة ملابس وأفرشة وبطانيات بأحد زواياها، وحصيرة سترت وجه الأرض، قالت ضياء بعد أن جلست وجلست مها إلى جانبها:

– لقد استطعت أن أتعرف اليوم على كل طالبات الدفعة، في البداية ظننتُ بأن الجميع سيتجنبني لكوني غريبة عن المدينة وبسبب إصابة وجهي، لكن سحر – ما أروعها من فتاة – قالت لي بعد أن أخبرتها بسبب قدومي إلى هنا:

(مهما ظل الذهب وبريقه مُختفيان عن الجميع، لابد أن يظهر ذات يوم، دوام الحال من المحال يا ضياء، أنا واثقة أن الجميع سيحبك ذات يوم مثل ما أحببتك، الحرب هي من أجبرتك على ترك بيتك ومدينتك التي تحبينها، أنت بالنسبة لي كأختي ولن تكوني غريبة عني أبداً)

ثم بدأت تخبر الفتيات عني وتقنعهن بكلامها وبدأت بصديقاتها سوسن وندى وصفاء، كنتُ خائفة حقاً من التعامل معهن، وأن يعتبروني متشردة عن...

قاطعتها مها وهي تقول في حنو وتمسح على رأسها:

–بنيتي، نحن لم نختر التشرد عن بيوتنا، هي الحرب والأسياد بأطماعهم شردوا أبناء المدينة ولم يحموهم ويدافعوا عليهم، والنازح عن مسكنه يجب أن يعامله الآخرون في مدنهم كأهلهم، لكن... ليس الجميع مقتنع بهذا، فالناس مختلفة في تفكيرها، هناك من يجد هذا فرصة لاستغلال حاجتهم أو إهانتهم... للأسف.

–معك حق، من زمرة من ذكرتِ شاب يدعى (طارق)، كان ينظر إليَّ بسخرية، تحدث معي وكأنه يشفق عليّ، شخص مغرور، وواضح بأنه من أسرة ثرية.

–تجنبي كل ما من شأنه أن يؤثر على تفكيرك في الدراسة.

هزت رأسها وهي تقول حزم:

– نعم أمي، لأجلك ولأجل أخي شادي الذي بذل كل جهده لألتحق بالجامعة لن أخيب ظنكما بإذن الله.

ابتسمت وقالت:

– و الآن انهضي واغتسلي لنتناول الغداء معاً، فشادي كما تعلمين لا يمكنه مشاركتنا لانشغاله بالعمل.

نهضت ضياء وخلعت حجابها الأسود وعباءتها، لتضعهما على علاقة الملابس، وتنصرف امتثالا لأمر مها التي ظلت تنظر إليها، والحزن ينهش قلبها وتحاول محو آثاره من عينيها، إلا أن جسدها خلد المأساة في قلوبهم جميعاً، وكشف أمامها مدى حجمها.

في السابق كان جسدها ممتلئ قليلاً، يضج بالحياة؛ بشرة بيضاء، طول معتدل، وقوام متناسق جميل تلائمه كل ما تتخيره لنفسها من الثياب سواء كان فستان أو قميص أو بنطال، تطلب شراءه من أبيها وأخيها اللذين لم يبخلا عليها ويدركان حسن اختيارها، ورغم حبها للزينة كأي فتاة في مثل عمرها إلا أنها كانت تعتدل ولا تبالغ، تزين وجهها دائما ابتسامة ساحرة تظهر غمازتين جميلتين على خديها، فتسحر بها الحياة نفسها لتبتهج أمامها وأمامهم، شعرها الأسود ستارٌ من الليل تلألأ وكأن النجوم قد هبطت إليه، تزينه دائما بمشبك كريستالي تختاره بعناية، وبعد أن تسرحه تضعه وتترك أطرافه تتطاير على ظهرها، ويتمرد وفق ما يريد، كان موفور الصحة مثل جسدها.

كانت ضياء البيت ووهجه وسعادته، بل بدت كطفلة مدللة وسط عائلتها.

أما الآن، فتلك الابتسامة قد خبت أول مرة بعد وفاة والدها قبل إنهائها المرحلة الثانوية، ثم قضت الحرب عليها؛ بل قضت على كل جسدها؛ أضعفت بنيتها، وأحرقت نصف وجهها الأيسر، وأكلت بعض منابت الشعر في فروة رأسها من مقدمته، وبان من قميصها الطويل ذو الكم القصير ندبة الحرق الممتدة من تحت الكم الأيسر إلى قرب رسغها متخذة ألوانا متعددة غير لون بشرتها، وبانت أيضا من ساقها وقدمها اليسرى وهي تغطي مفصل كاحلها، أما شعرها فرغم طوله بدا شاحبا باهتا، جمعته برباط مثلها خلف رأسها، ذابت واضمحلت كل البهجة التي رافقتها في زمن الطفولة والمراهقة، تقرأ في عينيها السوداوين سواد المستقبل حين تشرد بفكرها، أو تراها خلسة تتأمل الندبة الحمراء الكبيرة بوجهها في المرآة حين تكون بمفردها تتحسس تجاعيدها الظاهرة قبل الأوان وعيناها تقولان:

-من يمكنه أن يلتفت لشوهاء مثلك؟

ومرة رأتها تحرك مرفقها ورجلها الأيسرين بأريحية وتسمع لسانها يلهج بحمد الله أن وصلت إصابتها لهذا الحد، ماذا لو عجزت عن تحريك مفاصلها؟ ماذا لو أصابها العجز؟ لماتت ببطء قبل أن يأتيها الموت لينتشلها من محنتها، جاهدت لتداري آلامها بعد النزوح، لجأت لربها ودعته أن يساعدها، ثم تجدها تشغل نفسها بالقراءة وتصفح كتب إلكترونية، وتقوم بأعمال البيت كلها قبل التحاقها بالجامعة، المهم ألا تجلس دون عمل لتفكر في محنتها.

الحرب تختطف الفرح من الأبرياء بغتة، وتهبها لأكبر اللصوص، ساستها الذين لبوا نداءها واجتمعوا لأجلها؛ لتأجيجها وإطالة عمرها حتى يزخروا بنعيمها.

هل هنالك شيء أقسى على الزهرة من أن يُسلب روحها وشذى عبيرها؟

هربت دموع من عيني مها وهي تقول بحزن:

- ليتنا نستطيع علاج إصابتك يا ابنتي لتعودي كما كنت.

حزنها لم يكن يغيب كثيراً عن عيني ضياء، كانت تلمحه بين فينة وأخرى، رغم أنها من تمنحها بكلماتها ووقوفها إلى جانبها شجاعة الصمود، لمحت تلك الدمعة المتلألئة على خدها فاضحة آلامها عليها وحسرة قلبها، لم تعد إليها بل أكملت طريقها ومضت، لن تستطيع إثبات صمودها أمامها إلا بتفوقها في دراستها متحدية كل المصاعب.

الكراهية... الثقب الأسود الذي يستحوذ على القلب، ويلتهم كل ما هو جميل أمام العيون، فلا يبقى شيء، ثم تندفع تيارات الحقد لتؤججها وتوسع ثقبها لتستحكم بكامل الفكر وتحرك كامل الجسد.

طارق الذي عقد عزمه على إيذاء ضياء لم يرفع عيناه الخبيثتان عنها يوما، ولم تبتعدا منذ أن وطأت قدماها أرض الكلية، ذات يوم، ومع بداية الدوام قبيل المحاضرة، وقف وحيداً بأحد الممرات المؤدية إلى المكتبة مسنداً ظهره إلى جدار، ينظر إلى (صلاح) وهو يقوم بتنظيف الأرضية بماء دلوه وممسحته بالقرب منها وعلى مسافة منه؛ عامل نظافة عجوز أحنى الزمن

ظهره وأثقل كاهله، وكأن الحياة قد ألقت بكل أوجاعها عليه لتضمر جسده وتقصر قامته كثيراً، وتتعاظم طيات الجلد المهترئة على ما ظهر من جسده، رغم كل ضعف ووهن كان على استعداد ليكافح لأجل لقمة العيش، فوصلت به عاصفة الحياة ليكون في أحضان هذه الكلية ملمعاً لجدرانها وأرضياتها وأبوابها وأثاثها.

ظل ينظر إليه في ملل وهو لا يزال في مكانه، تثاءب ملئ فيه، الحركة بالممر قليلة، ومعظم الطلاب توجهوا إلى القاعات لحجز مقاعد لهم.

ثم تبددت نظرات الملل من عينيه مع إطلالتها من الجهة المقابلة بالممر متجهة إلى المكتبة، فهي الفترة التي اعتادت فيها التردد إليها ولاسيما لتعوض المحاضرات التي فاتتها قبل التحاقها بالكلية من خلال نقاشاتها مع سحر ومتابعتها للدروس القادمة، كان يدرك هذا الأمر جيداً بعد أن علم بكل تحركاتها، فأسرع يقترب من العجوز صلاح متظاهراً بمروره قربه حين كادت تقترب منه أيضاً من الجهة الثانية بعيدة، وما كاد العجوز يخطو خطوات وهو يمسح الأرضية بالممسحة، حتى فوجئ بطارق –حين مر قربه– يعثّره بحذائه، فلم يستطع الاستناد إلى ممسحته المبللة والتي كانت الشيء الوحيد القريب منه والممسك به، فانزلقت ووقع أرضاً خلفها موقعاً إياها والدلو القريب منه لينسكب بمائه المتسخ على الأرض، وعلى ضياء التي فوجئت لما حدث وشهقت في فزع وقد أصاب الماء قدمها اليمنى وعباءتها.

ضحك رفاق طارق المتابعين للمشهد من بعيد، وبعض من كانوا بالممر بين ساخر ومتفاجئ.

أما طارق فلم يتوقف عن المشي إلا حين سمع ضجيج الدلو، فالتفت خلفه، ورفع حاجبيه وقد رسم المفاجأة على وجهه وهو يرى قطرات الماء المتسخة تقطر من العباءة السوداء وقد غُمر الجزء السفلي الأيمن منها، فالتصق بساق ضياء النحيلة، منظر وجهها المنفر ووضعها الآن أثارا الضحك في أعماقه، ها هي الآن ستكون موضع سخرية الجميع، ولن ينسى هذا الموقف المخزي لها كل من شهده، تطلع لوجهها ليطفئ نار حقده ويرضي غروره، فرأها متفاجئة، عيناها مشدوهتان كأنما تحاول أن تفسر ما جرى وهي تتطلع فيه تارة وفي صلاح تارة أخرى، فأحس بنشوة ظفر لا توصف، لحظات وستكون دموع الخجل والارتباك تنهمران من عينيها، إلا أنه كتم انفعالاته بقوة، وهو يشير لها ويقول لصلاح بسخرية مدعياً الشهامة:

-يا لك من قليل الذوق، قليل الاهتمام يا عم صلاح، كيف تفعل هذا؟ ألا ترى أمامك؟ لقد أفسدت عباءة الفتاة.

كان العجوز يلملم آلام سقوطه، حمد الله أن عظما من عظامه الهشة ذات الستين سنة لم تكسر، وظل يشتم في أعماقه سلوك طارق المشين الذي لا يليق بطالب في المرحلة الجامعية، كتم كل آلامه حتى لا يثير مشكلة حفاظاً على مهنته، واعتدل جاثيا على ركبتيه متحاملا على نفسه ليصلح ما أفسد، ولم يوقظه من ألمه وشروده إلا حديثه عن ضياء فنظر إليها بسرعة، وارتبك لما حصل لها، نهض، وهو يقول لها معتذراً:

-أعتذر منك يا ابنتي... لم...

لم يكمل عبارته حين لاحظ أنها لا تنظر إليه ولم تنتبه لحديثه، فقد ازدادت المفاجأة على وجهها وهي تحدق بطارق، واتجهت نحوه وقد احتقن وجهها غضباً وصفعته، وهي تقول في حزم:

-يا جرأتك ووقاحتك، يجب أن تعتذر حالاً للعم، لقد رأيتك وأنت تعثره وتتسبب في سقوطه، وتحاول أن تدفعه للاعتذار مني وتلقي اللوم عليه؟

رجته الصفعة وأطارت كل خيالات الظفر من رأسه، أصابته نوبة ذهول لتصرفها وجسارتها، فظل واجما يحدق بها متأملا قسمات وجهها الحازمة الغاضبة ويتحسس خده المتألم...لم تدرك حقيقة نيته، ومع ذلك تجاسرت على إهانته أمام الحاضرين، وجم أصحابه الواقفون وكل من كان بالممر، بينما صاحت في غضب:

- كن مغرورا بثرائك قدر ما تشاء؛ لكن هذا لا يسمح لك بأن تهين من هم أكبر منك وتقلل من احترام الآخرين، هيا اعتذر.

قال العجوز مهدئاً وهو يقترب منها:

-لم يحدث شيء يا ابنتي، المهم أنتِ، فعباءتك...

فقالت وهي تلتف إليه:

- لا تقلق يا عم، ففي الحياة عوارض كثيرة عليك تجاوزها هذه أبسطها... لا تقلق عليّ.

- لكن هذا سيؤثر على منظرك بين زملائك.

ابتسمت وقالت:

قلت لك لا تقلق.

ازداد طارق ذهولاً من أقوالها، فتمتم في نفسه:

-كان الأولى بها أن تجري وتعود إلى بيتها لتبدل ثيابها وتهتم بمظهرها قبل أن تكون سخرية زملائها، لكن... أكبر همها هو ما جرى بهذا العجوز! أي فتاة قد تفكر في نفسها ومظهرها في هذا الوضع، إن تفكيرها غريب حقاً!

شرد قليلاً حين تذكر كل من رأى ما حدث، فعقد حاجبيه واتقد مرجلٌ غضب في أعماقه؛ لقد أهانته أمامهم، فحز على أسنانه، وزفر بقوة وهو يتمتم غاضباً:

-لن أغفر لها، لن أسامحها، كيف تجرؤ؟ يدها الناعمة تلك تحمل قسوة فظيعة، من تظن نفسها تلك المزدوجة الوضيعة؟

لحظتها التفت إليها مسرعاً، فوجد سحر تسحبها من المكان، وتبتعد بها ونظراتها الحازمة الصامتة لا تزال تقذف نحوه، بينما ساعد بعض الطلاب صلاح على جمع أدواته وتنظيف المكان، شكرهم وعاد لعمله.

أما طارق فقد أراد أن يلحق بها ليرد عليها؛ لكنه رأى أنظار المارين عالقة به، بين اتهام وتصديق لما قالته، واحتقار على إهانته لرجل عجوز بسيط، وسخرية لما فعلته به، ارتبك وغادر المكان مسرعاً... حائراً... لا يدري ماذا يفعل ليعدل بوصلة المؤامرة التي انقلبت ضده.

*****